تراجم

جمال الدين الأفغاني
وطريق النهوض والاستنارة بالإسلام

الدكتور محمد عمارة*

جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٩٢٨ - ١٨٧٩م) هو جمال الدين بن صفتر بن علي بن مير رضي الدين محمد الحسيني.

أعظم رواد اليقظة الإسلامية الحديثة، وأبو الصحوة الإسلامية المعاصرة، وأبرز قادة الحركة الإصلاحية الإسلامية، ومن طلائع المجددين للفكر الاسلامي في العصر الحديث..

عربي الأصل، هاشمي النسب، يرتفع نسبه إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

ولد في «اسعد آباد» بخطة «كنر» من أعمال «كابل» ببلاد الافغان[1] في أسرة ذات نفوذ سياسي واداري وفي الثامنة من عمره انتقل - مع الأسرة - إلى العاصمة

---

*- باحث ومفكر مصري، من بحوث مؤتمر الذكرى المئوية للسيد جمال الدين الاسد آبادي المعروف بالافغاني - شوال ١٣١٧هـ.

١- اختلف الباحثون في مولد السيد جمال الدين ونشأته وأصل أسرته وظهر هذا الخلاف في الاوراق المقدمة الى مؤتمر طهران الذي انعقد بمناسبة ذكراه المئوية. ونعتقد أن التركيز على هذه المسألة لاجدوى فيه، خاصة وأن حياته ارتبطت بكل العالم الاسلامي من شرقه في الهند الى غربه في الشمال الافريقي. كثير من الاوراق استدلت على أنه ايراني من أسرة ايرانية سكنت في مدينة «أسد آباد» بمحافظة همدان، ولايزال أفراد هذه العائلة موجودين في هذه المدينة (التحرير).

«كابل» عندما خشى أمير البلاد «دوست محمدخان» نفوذ أسرته في منطقتها.. وفي «كابل» أشرف والده على تعليمه. وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره كان قد درس مبادئ العلوم العربية والتاريخ وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول وكلام وتصوف ، والعلوم العقلية، من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية، وحكمة نظرية طبيعية والهية، والعلوم الرياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك، وأيضا نظريات الطب والتشريح!».

وبحكم الشتات الذي فرض على أسرته، أتيحت له فرص الدراسة في «الحوزات العلمية» بالعراق، والسياحة في الهند والإقامة حيناً من الدهر في ايران - مع الأسرة المهاجرة في «أسد آباد».

ولقد أجاد من اللغات، غير العربية والفارسية والافغانية: التركية والفرنسية، مع المام بالانجليزية والروسية.

وفي ظل حكم الامير الافغاني الوطني «محمد أعظم خان» تولى جمال الدين منصب «الوزير الاول» - رئيس الوزراء - وقاد معارك حربية ضد الغزو الانجليزي لبلاد الافغان.. فلما هزم «محمد اعظم خان»، وحكم خصمه، الموالي للانجليز، «شير علي» بدأت سياحة جمال الدين في عالم الاسلام.. فتنقل من الهند إلى مصر إلى الآستانة إلى الحجاز إلى العراق إلى/ايران إلى روسيا إلى باريس ولندن، داعيا إلى الاحياء والتجديد للفكر الاسلامي، وإلى ايقاظ الأمة الإسلامية من سباتها، وفك قيود الجمود والتقليد، والاقلاع من التخلف الموروث إلى النهوض الاسلامي، لمواجهة الاعصار الاستعماري الغربي الزاحف على ديار الاسلام.. وكان - في سبيل ذلك - مذكيا لمنهاج الشورى والحرية في إدارة شؤون الامة وتدبير سياسات حكوماتها، وموقداً للثورات في وجه الاستبداد الداخلي والاستعمار الغربي الزاحف على الشرق الاسلامي..

ومع إيمانه بدور العامة والجماهير في الثورة والاصلاح، فلقد كان أبرز صناع النخبة والصفوة الاسلامية، التي قادت حركة الجامعة الإسلامية على امتداد وطن العروبة وعالم الاسلام لعدة قرون، مجدداً للفكر، وقائداً لحركات التحرر الوطني،

وداعية إلى الاصلاح الاجتماعي، ومفجرا للعديد من الثورات.. حتى لقد كانت صناعته الاولى هي صناعة الرجال!

ولقد كانت السنوات التي عاشها الأفغاني بمصر (١٢٨٨ - ١٢٩٦هـ ١٨٧١ - ١٨٧٩م) - هي أخصب السنوات في تاريخ انجازاته الفكرية والسياسية.. ففيها ربى نخبة من العقول التي جددت فكر الاسلام وحياة المسلمين - وفي مقدمتهم الإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) - وشرح من كتب الفلسفة والكلام والمنطق ما أعاد للحياة الفكرية قسمة العقلانية الإسلامية، التي غابت عنها منذ عصر التراجع الحضاري للمسلمين.. ونشأت على يديه مدرسة في الصحافة الأهلية الحرة - غير الحكومية - وتيار شعبي لمعارضة الاستبداد الداخلي، وللثورة على النفوذ الاجنبي - الاقتصادي والسياسي والعسكري - الزاحف على ديار الاسلام.. بل لقد عرفت مصر - على يديه وبقيادته - طلائع التنظيمات السياسية - (الحزب الوطني الحر) - في تلك الفترة المبكرة من نشأة الاحزاب...

وبضغوط من الدول الاستعمارية - وخاصة انجلترا، التي كانت تُحضّر لاحتلال مصر - خضع الخديو توفيق (١٢٦٨ - ١٣٠٩هـ ١٨٥٢ - ١٨٩٢م) فنفى جمال الدين من مصر (١٢٩٦هـ ١٨٧٩م) - زاعماً أن الأفغاني يقود جماعة من ذوي الطيش، مجتمعة على فساد الدين والدنيا!!.. فذهب جمال الدين - منفيا - إلى الهند - وهي مستعمرة انجليزية - فمكث فيها، محددة اقامته من قبل حكومتها الانجليزية، حتى تمت هزيمة الثورة العرابية، واحتلال الانجليز لمصر (١٢٩٩هـ ١٨٨٢م).. وعندئذ سمح له الانجليز بمغادرة الهند، فسافر إلى باريس - العاصمة المنافسة لانجلترا - وهناك لحق به الشيخ محمد عبده - وكان منفيا ببيروت، بعد هزيمة العرابيين ومحاكمتهم - .. ومن باريس أصدرا مجلة (العروة الوثقى) لتعبر عن فكر وسياسة التنظيم السري الذي أقامه الافغاني، لمواجهة الاستعمار الانجليزي، وإنهاض المسلمين.. وهو التنظيم الذي امتدت «عقوده - خلاياه» إلى أغلب بلاد المسلمين - وخاصة مصر والهند - والذي استقطب صفوة العلماء المجددين والأمراء والساسة المجاهدين - تنظيم (جمعية العروة الوثقى) - فكان هذا التنظيم ومجلته أهم مدارس

الوطنية الإسلامية والبحث الحضاري الإسلامي، التي تربى فيها وتعلم منها واستضاء بمنهاجها دعاة اليقظة والتجديد والاصلاح والثورة على امتداد عالم الاسلام..

ولقد انتهى المطاف بالافغاني - بعد أن زرع التجديد والاحياء والثورة في أرجاء العالم الاسلامي.. وبعد أن صنع على عينه جيلا من القادة والعلماء والثوار والمجددين - انتهى به المطاف إلى «القفص السلطاني الذهبي» الى «الآستانة»!.. لكنه، وهو النسر المستعصي على قيود السلاطين، وأسوار المدن، وجغرافية الاوطان، حاول تحرير إرادة السطان عبد الحميد (١٢٥٨ - ١٢٢٦هـ ١٨٤٢ - ١٩١٨م) من قبضة حاشيته الغارقة في الرجعية والفساد.. وسعى إلى بعث الروح في الحركة الجامعة الاسلامية، لمناهضة الزحف الاستعماري على ولايات الدولة العثمانية.. وتطلع إلى سد ثغرة الشقاق المذهبي والسياسي بين إيران ودولة الخلافة الاسلامية، لقطع الطريق على الاستعمار، الذي يخترق الوجود الاسلامي من مثل هذه الثغرات!..

وظل الأفغاني قائما بفريضة الجهاد على هذه الجبهات - التجديد الفكري .. واليقظة العلمية.. والتصدي للاستعمار.. وكسر قيود الاستبداد - حتى وافاه الأجل، فلقى ربه - في الساعة السابعة والدقيقة الثالثة عشرة، من صبيحة يوم الثلاثاء ٥ شوال ١٣١٤هـ ٩ مارس ١٨٩٧م - .. ودفن في الآستانة.. ثم نقل جثمانه - بعد سنوات - إلى بلاده الافغان.

* * *

ولقد ترجم له، وتحدث عنه أعرف الناس به، وأقربهم اليه: الامام محمد عبده، فقال، ضمن ما قال:

«هو السيد محمد جمال الدين، بن السيد صفتر، من بيت عظيم من بلاد الأفغان... حنفيّ حنيفي، وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلدا، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية.. يمثل لناظره عربيا محضا من أهالي الحرمين، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الاولية سكنة الحجاز..

وكان مقصده السياسي، مدة حياته: انهاض دولة إسلامية من ضعفها، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة والدولة بالدول القوية، فيعود للاسلام شأنه وللدين الحنيفي مجده..

أما أخلاقه، فسلامة في القلب سائدة في صفاته، وحلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمسّ شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب تنقص منه الشهب! فبينما هو حليم أوّاب إذا هو أسد وثاب! وهو كريم، يبذل ما بيده، قوي الاعتماد على الله، لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر. عظيم الامانة، سهل لمن لاينه، صعب على من خاشنه. طموح إلى مقصده السياسي.. اذا لاحت له بارقة منه تعجّل السير للوصول إليه -وكثيرا ما كان التعجل علة الحرمان!..

وهو قليل الحرص على الدنيا، بعيد من الغرور بزخارفها، ولوع بعظائم الأمور، عزوف عن صغارها، شجاع مقدام، لايهاب الموت، كأنه لا يعرفه!.

إلا أنّه حديد المزاج - وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة! - .. إلا أنّه صار في رسوّ الأطواد وثبات الاوتاد! فخور بنسبه إلى سيد المرسلين ﷺ لايعد لنفسه مزية أرفع ولا عزا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر..

ولو قلت: إن ما آتاه الله من قوه الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الانبياء، لكنت غير مبالغ!.. فكأنه حقيقة كلية، تجلت في كل ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية، قامت لكل نظر بشكل يشاكله!..

لقد أُتيت من لدنه حكمة أقلب بها القلوب وأعقل العقول..! وأعطاني حياة أشارك بها محمداً وابراهيم والاولياء والقديسين!!..»[١].

وإذا كانت هذه الكلمات - للامام محمد عبده.. عن جمال الدين الأفغاني - هي سطور من الصفحات التي كتبها أخبر الناس بالافغاني، وأقربهم إليه، وأعرفهم به وأنضج الثمرات لأطيب البذور والتي غرسها هذا الفيلسوف العظيم.. فلقد كانت رؤية

١- *الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده* ٢ / ٣٣٦ - ٣٤٥. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة ١٩٩٣م.

الافغاني لنفسه من البساطة بحيث تفتح البصائر على حقيقة الحياة التي عاشها والآثار التي تركها هذا الانسان العظيم.. لقد رأى نفسه «درويشا فقيرا، عابرا في هذه الحياة»! وكان يناجي نفسه فيقول: «أنت أيها الدرويش الفاني! مم تخشى؟!.. إذهب وشأنك، ولا تخف من السلطان، ولا تخشَ الشيطان!! إنه سيان عندي طال العمر أو قصر.. فإن هدفي أن أبلغ الغاية، وحينئذ أقول: فزت ورب الكعبة!..»[١].

تلك سطور موجزة في سيرة العظيم جمال الدين!..

الاستنارة بالإسلام .. لا بالغرب

وإذا كان الحديث عن ميادين الإصلاح، الذي دعا إليه جمال الدين الأفغاني، إنما يحتاج إليه مجلدات - وهو قد كتب فيه الكثير - فإن مقاصد هذه الصفحات هي الإشارة إلى المنطلقات التي انطلق منها الافغاني إليه هذا الاصلاح.

فقبل عصره، لم تكن هناك مرجعية للاصلاح والاجتهاد والتجديد والتغيير سوى الاسلام في سائر بلاد المسلمين.. فكل المذاهب كانت إسلامية، وكذلك كان سائر المصلحين والمجددين... لكن الافغاني عاش وجاهد وسعى إلى الاصلاح في عصر اقتحمت فيه المرجعية الحضارية الغربية - الوضعية .. المادية.. اللادينية - أي العلمانية - ساحات ديار الاسلام.. وأصبح لهذه المرجعية الغربية - كما تمثلت في «فلسفة التنوير الغربي العلماني» دعاة وأنصار ومبشرون، يدعون إلى استبدالها - في النهضة - بالاسلام ، ويفضلون الاستنارة بأنوارها على الاستنارة بالاسلام.

لقد وجد الافغاني نفسه أمام خيارين في «المرجعية النهضوية»، وازاء «نموذجين للتنوير»:

الف - التنوير الغربي - الوضعي.. وأحيانا المادي - الذي أقام قطيعة معرفية مع الموروث الديني، وذلك عندما أحل فلاسفته العقل والعلم والفلسفة محل اللّه

١- *الأعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني*، ١/ ٤٨ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت ١٩٧٩م.

والكنيسة واللاهوت.. وأعلنوا أنه لا سلطان على العقل إلا للعقل وحده.. وجاهروا بأن استخدام المصطلحات الدينية لا يعني التخلي عن هذه القطيعة المعرفية مع الدين.. «فبعد أن كان المسيحي حريصا على طاعة الله وكتابه، ولم يعد الانسان يخضع الا لعقله.. فأيديولوجية التنوير قد أقامت القطيعة الابستمولوجية (المعرفية) الكبرى التي تفصل بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس (توما الأكويني)، وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير.. فمنذ الآن فصاعدا راح الأمل بمملكة الله ينزاح لكي يخلي المكان لتقدم عصر العقل وهيمنته. وهكذا راح نظام النعمة الإلهية يتمحي ويتلاشى أمام نظام الطبيعة.. لقد أصبح الانسان وحده مقياسا للانسان.. وأصبح حكم الله خاضعا لحكم الوعي البشري، الذي يطلق الحكم الأخير باسم الحرية.. ويمكن للمعجم اللاهوتي القديم أن يستمر، ولكنه لم يعد يوهم أحدا، فنفس الكلمات لم يعد لها نفس المعاني»؟![1]

وجدت أمتنا - وهي تتحسس طريقها لليقظة والنهوض - نفسها أمام هذا الخيار للتنوير الغربي - الوضعي .. العلماني - الذي يقيم قطيعة معرفية مع الدين، ويفرغ مصطلحات المعجم الديني - اذا هو استخدمها - ممالها من مضامين!!..

ب - وبين «التنوير الاسلامي»، الجامع بين الشرع والعقل.. بين الحكمة والشريعة.. بين آيات الله المنزلة وآياته المبثوثة في الأنفس والآفاق..

ولقد اختارت مدرسة الإحياء والتجديد التي تبلورت من حول موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٢٨ - ١٩٩٧م) - اختارت لأمتنا هذا الطريق.. طريق الاستنارة والتنوير بالإسلام ، وليس بالقطيعة المعرفية مع الاسلام. فهي قد رفضت غلو الجمود والتقليد، حتى ولو كان أصحابه قد امتازوا بتنقية العقيدة من البدع والإضافات والخرافات، لأنهم بمعاداة العقلانية

١- أميل بولا (*الحرية، العلمنة، حرب شطري فرنسا ومبدأ الحداثة*) منشورات سيرف. باريس ١٩٨٧م - نقلا عن هاشم صالح - مجلة الوحدة - الرباط - عدد فبراير - مارس ١٩٩٢م - ص ٢٠، ٢١.

الإسلامية لم يتجاوزوا مواقع التقليد، الذي جنى على حضارتنا العربية الإسلامية «فهذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وكلما خاطب، خاطب العقل، وكلما حاكم، حاكم إلى العقل، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة.. فالعقل مشرق الايمان، ومن تحول عنه فقد دابر الايمان»[١].

وفي نفس الوقت، رفضت هذه المدرسة الإحيائية التجديدية عقلانية التنوير الغربي، تلك التي تأسست على النزعة الوضعية والمادية.. فوجهت شديد النقد لفلاسفة التنوير الغربي - من مثل «فولتير» (١٦٩٤ - ١٧٧٨م) و«رسو» (١٧١٢ - ١٧٧٨م) - وقالت عند هذا التنوير: انه قد بعث مذهب اللذة.. والدهرية.. وبعبارة الافغاني: فلقد ظهر «ولتير وروسو»، يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم، والقيام بانارة الافكار وهداية العقول، فنبشا قبر «ابيقور» الكلبي (٣٤١ - ٢٧٠ق .م) واحييا ما بلى من عظام الدهريين، ونبذا كل تكليف ديني، وغرسا بذور الاباحية والاشتراك، وزعما أن الآداب الالهية جعليّات خرافية، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الانساني، وجهر كلاهما بانكار الالوهية، ورفع كل عقيرته بالتشنيع على الانبياء.. فأخذت هذه الاباطيل من نفوس الفرنساويين.. فنبذوا الديانة العيسوية.. وفتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة (في زعمهم) شريعة الطبيعة. ولقد بذل نابليون الاول جهده في إعادة الديانة المسيحية إلى ذلك الشعب، استدراكا لشأنه، لكنه لم يستطع محو آثار تلك الاضاليل..»![٢].

ذلك هو رأي مدرسة التجديد الإسلامي في فلاسفة الأنوار الغربيين وفي تنويرهم المادي العلماني.. ثم هي قد وجهت شديد النقد للمقلدين - من مثقفينا - لهذا التنوير الغربي .. فالمقلدون لتمدن الامم الاخرى - كما يقول الافغاني - :«ليسوا أرباب تلك العلوم التي ينقلونها، وإنما هم حملة، نقلة!.. لا يراعون فيها النسبة بينها

١- *جمال الدين الافغاني «الاعمال الكاملة»* ص ١٧٧ - دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة ١٩٦٨م.

٢- المصدر السابق. ص ١٦١، ١٦٢.

وبين مشارب الأمة وطباعها.. وهم ربما لا يقصدون إلا خيرا، إن كانوا من المخلصين!.. لكنهم يوسعون بذلك الخروق حتى تعود أبوابا.. لتداخل الأجانب فيهم.. فيذهبون بأمتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير»![1]

بل إن الاستعارة والتقليد للنموذج الاجنبي - إذا كان الاجنبي غازيا مستعمرا - قد تتحول إلى ثغرات اختراق للامن الوطني والقومي والحضاري «فمتى طرق الأجانب أرضا لأية أمة، ترى هؤلاء المتعلمين المقلدين فيها أول من يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم.. كأنما هم منهم، ويعدون الغلبة الاجنبية في بلادهم أعظم بركة عليهم.. ولقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الاعداء اليها.. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، ويمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يلبون أوامرهم..»![2]

وبعد النقد والنقض والرفض لفلسفة الأنوار الغربية.. والادانة لتقليدها واستعارتها سبيلا لنهضتنا.. قدمت مدرسة الإحياء والتجديد المذهبَ الاسلامي في النهضة، المستنير بالتنوير الاسلامي، بديلا عن غلوى الافراط والتفريط (جمود المتنكرين للعقل والمنكرين للعقلانية.. وانصار التأليه للعقل، الذين استبدلوه بالدين).

* فالاسلام هو الحافز على النهوض.. وليس عقبة في سبيله، ذلك «أن الدين قد أكسب عقول البشر ثلاث عقائد، وأودع نفوسهم ثلاث خصال، كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية وأساس محكم لمدنيتها، وفي كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات الكمال والرقي إلى ذرى السعادة:

العقيدة الأولى: التصديق بأن الانسان مَلَك أرضي، وهو أشرف المخلوقات..

والثانية: يقين كل ذي دين بأن أمته أشرف الامم..

والثالثة: جزمه بأن الانسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي..»[3]

١- المصدر السابق. ص ١٩١ - ١٩٧.

٢- المصدر السابق. ص ١٩٥ - ١٩٧.

٣- المصدر السابق. ص ١٤١.

فعقائد الدين هي الحافز على التقدم والنهوض والتدافع والتسابق والارتقاء.

* وهذا التقدم، الذي يحث عليه الدين - بسبب من توازنه وموازنته بين غرائز وملكات ومكونات الإنسان - هو وحده الكافل تحقيق السعادة لهذا الإنسان «فلم تبق ريبة أن الدين هو السبب المفرد لسعادة الانسان - السعادة التامة، يذهب بمعتقديه في جواد الكمال الصوري والمعنوي، ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهري والباطني ، ويرفع أعلام المدنية لطلابها، بل يفيض على التمدن من ديم الكمال العقلي والنفسي ما يظفرهم بسعادة الدارين..»[١]

* واذا كانت الأمة العربية قد نهضت وعزت وسادت - قديما - بالتنوير الاسلامي.. فإنه وحده، دون سواه، السبيل إلى اصلاح الخلل الحضاري الذي طرأ على مسيرتها.. «أرسل فكري إلى نشأة الامة التي خملت بعد نباهة.. وأطلب أسباب نهوضها الاول.. إنه دين قويم الاصول، محكم القواعد، شامل لانواع الحكم، باعث على الالفة، داع إلى المحبة، مزين للنفوس ، مطهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج اليه الانسان من مباني الاجتماعات البشرية، وحافظ وجودها، ويتأدى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.. فإن كانت هذه شرعة تلك الامة، ولها وردت وعنها صدرت ، فما تراه من عارض خللها، وهبوط عن مكانتها، إنما يكون من طرح تلك الاصول ونبذها ظهريا ففلاحها الناجع! إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والاخذ بأحكامه على ما كان في بدايته».

* وحق بمنطق «المنفعة - والمصلحة .. والجدوى.. وفعالية النهضة.. وسرعة الإقلاع الحضاري».. فإن طريق التنوير الاسلامي أقرب وأفعل - لأنه الموروث .. والمألوف .. والحاضر - من ذلك «التنوير الغربي» - الغريب.. والذي يستريب منه الجمهور .

واذا كانت أمتنا قد جربت - عبر القرنين الماضيين - كل تجليات التنوير الغربي

١- المصدر السابق. ص ١٧٢ .

- من الليبرالية الرأسمالية.. إلى الشمولية الشيوعية.. إلى القومية الشوفينية، والى الأخلاط التي اصطنعت المزج بين هذه التجليات - فإننا مدعوون إلى تأمل هذا الذي بشرت به مدرسة الاحياء الاسلامي - قبل هذه التجارب الفاشلة - من «أن جراثيم الدين متأصلة في النفوس .. والقلوب مطمئنة اليه، وفي زواياها نور خفي من محبته، فلا يحتاج القائم باحياء الامة الا إلى نفخة واحدة يسرى نفسها في جميع الارواح لاقرب وقت. فاذا قاموا، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا في سيرهم منتهى الكمال الانساني..»

* بل لقد بلغ الاعتقاد - عند مدرسة الإحياء والتجديد - بأن التنوير الاسلامي هو السبيل المفرد والطريق الاوحد لنهوض هذه الامة.. بلغ هذا الاعتقاد حد اليقين.. فقال الأفغاني: «.. ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططا، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية، وانعكس فيها نظام الوجود، فينعكس عليه القصد، ولا يزيد الامة الا نحسا ولا يكسبها الا تعسا..»!

- فهل كان الرجل يقرأ الحال الذي وصلنا اليه.. بعد التجارب الفاشلة التي انزلقنا اليها؟! - ..

إنه يواصل حديثه - متعجبا من هؤلاء الذين سلكوا كل الطرق، سوى طريق التنوير الاسلامي، والنهوض بالاسلام - فيقول: «.. ومن يعجب من قولي: - إن الاصول الدينية الحقة تنشئ للأمم قوة الاتحاد، وائتلاف الشمل، وتفضيل الشرف على لذة الحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل، وتوسيع دائرة المعارف، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدينة - فإن عجبي من عجبه أشد!.. ودونك تاريخ الأمة العربية.. وما كانت عليه قبل الإسلام من الهمجية.. حتى جاءها الدين فوحدها ، وقوّاها ، ونوّر عقلها، وقوّم أخلاقها، وسدد أحكامها، فسادت على العالم!..»[١]

فهو طريق التنوير الاسلامي .. السبيل الطبيعي - والوحيد - لنهوض هذه الامة.. ولا طريق سواه..

* * *

١- المصدر السابق. ص ١٩٧ - ١٩٩.

واذا كان لنا - في ختام هذه الدراسة - أن نعقد المقارنة بين «التنوير الاسلامي» - الذي دعا اليه جمال الدين الأفغاني وأعلام الاحياء والتجديد بالإسلام - وبين «التنوير الغربي» - الوضعي .. والمادي.. والعلماني - الذي قامت على قواعده النهضة الغربية الحديثة .. وبشر به في بلادنا المتغربون من مثقفينا - فيكفي أن نستعيد ما سبقت إشارتنا اليه، من أن مقومات «التنوير الاسلامي» هي:

١- تحرير الارادة والضمير من العبودية لكل الطواغيت، بافراد اللّه، سبحانه وتعالى، بالعبودية، وفي ذلك قمة التحرير للانسان..

٢- واعتبار القرآن - أي «النقل» - والدين والشرع نورا للبصر والبصيرة - أي «للعقل» الانساني - الامر الذي ينفي التناقض بينهما.. حتى ليصبح لاغناء ولا استغناء لأحدهما عن الآخر..

٣- والاستدلال والبرهنة والاعتبار على الحقائق الايمانية والعقائد الدينية بالآيات الكونية - المبثوثة في الآفاق (الكون) وبآيات الانفس (الخلق والاحياء والاماتة والبعث) وليس بآيات النقل والغيبيات..

٤- والحوار والمناجاة - حتى مع الذات الإلهية - وذلك طلبا لليقين الديني، الذي يطمئن به واليه القلب، وذلك بواسطة التجربة الحسية - كما في حوار الخليل ابراهيم عليه السلام مع اللّه سبحانه وتعالى..

فهو استنارة الانسان بالعقل والنقل، ليكون له - بالعقل والشرع - نور على نور!..

بينما مقومات ومقولات «التنوير الغربي العلماني» هي - كما صاغها واحد من أبرز الدعاة اليه:

١- «أن الإنسان (حيوان طبيعي) - اجتماعي، جزء من الطبيعة، وأقرب إلى الحيوان منه إلى اللّه».. أي ليس مخلوقا للّه، نفخ فيه من روحه ثم جعله خليفة له.

٢- وحصر الاهتمامات الإنسانية بقضايا العالم والطبيعة، لا العالم الآخر وما وراء الطبيعة.

٣-- وتبني «الدين الطبيعي» الذي اخترعه العقل، لا «الدين السماوي». ورد الشعور الديني إلى الخوف الخرافي!..

٤- وتحرير العقل من سلطان الدين، ليكون سلطانه مطلقا!

٥- وإحلال العلم محل الميتافيزيقا، وإحلال التجربة الحسية محل المعرفة النقلية والوجدانية!..

٦- واعتبار الفكر وظيفة الدماغ، فالمادة مصدر الفكر، وليس هناك نفس في الانسان!..

٧- وجعل الانسان هو «المطلق» بدلا من اللّه والدين!..

٨- واستنباط الاخلاق من الطبيعة الانسانية لا من الدين.. وجعل السعادة واللذة ، وليس الفضائل الروحية، هي معيارها!..

٩- وإحلال «الاجتماعية» محل «الدينية» سبيلا للسعادة الدنيوية!..

١٠- ورد القوانين إلى أصول فزيقية وتاريخية،لا الى الشريعة الدينية.. وتحرير التاريخ من السنن الالهية[١].

إن المقارنة بين هذين اللونين من التنوير، يضع يدنا على جذر الخلاف وأصل التباين بينهما.. فالتنوير الغربي يرى الانسان حيوانا طبيعيا.. بينما يراه الاسلام إنسانا ربانيا، ولذلك تقدم اليه الوضعية الغربية تنويرا يحل فيه العقل محل اللّه والوحي والدين، بينما يقدم له الاسلام تنويرا يجتمع فيه نور العقل ونور النقل والشرع والدين.. فالتنوير الغربي «تنوير طبيعي حيواني» بينما التنوير الاسلامي «تنوير انساني رباني»!.. ومن هنا اختلفت المقومات والمنطلقات والمقاصد والمقولات بين تنوير يستنير فيه الإنسان بالإسلام، وبين تنوير يستغني فيه الانسان عن الدين ويتجاوز شرائع اللّه!..

* * *

إن اختلاف المناهج، ومن ثمّ الحضارات، سنة من سنن اللّه التي لا تبديل لها ولا تحويل.. ولقد اختار اللّه سبحانه وتعالى لهذه الامة هذا المنهاج في النهضة والاحياء والتجديد، وذلك منذ اللحظة التاريخية والقدسية التي انفرجت فيها السماء عن «النور

١- د. مراء وهبة، مدخل الى التنوير / ٢٥ - ٧٠، ط القاهرة ١٩٩٤م.

الملائكي» الحامل لوحي «النور القرآني» الى «النور النبوي» والذي اكتمل في «نور الاسلام».. فمنذ هذه اللحظة القدسية، في مطلع فجر الليلة المباركة - ليلة القدر - من رمضان ١٣ ق . هـ ٦١٠م.. كان ميلاد «التنوير الاسلامي»، الذي يستنير به كل المستنيرين بنور الاسلام.. وانطلاقا من المرجعية الإسلامية في «الخيار النهضوي».. واستنارة «بالتنوير الاسلامي»، كانت السنة الحسنة التي سنها ودعا اليها جمال الدين الافغاني.. حتى لقد أصبح إماما ورائدا للعلماء والأعلام والمجاهدين، وللدعوات والحركات التي رفضت التغريب والتبعية الحضارية للغرب، وانطلقت على طريق الإصلاح الإسلامي، تجدد دين الاسلام لتجدد به دنيا المسلمين!